﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان وجه النَّجاة من عـذاب يوم القيامة

لمّا بَيَّنَ الله تعالى أنَّ يوم القيامة لا مجال فيه للتَّوبة ولا يقبل فيه الاعتذار، جاءت هذه الآية لتُبَيِّن وجه النَّجاة من عذاب يوم القيامة، فنبّههم الله تعالى إلى أنَّ السَّبيل إلى دفع العذاب هو التَّوبة في دار العمل اليوم، أي: في الدُّنيا، فقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ وفيه لطيفة: وهي أنَّ التَّنبيه على الدَّفع بعد التَّرهيب فيما مضى يفيد التَّرغيب بذكر أحوالهم والإنعام عليهم وإكرامهم[1].وأيضًا لمّا دلَّ الأمر باتّقاء النّار، والثَّناء على الملائكة بأنَّهم لا يعصون الله، على أنَّ الموجَّه إليهم الخطاب مقصِّرون في حَقِّ ربِّهم - جاء التَّوجيه الإلهيُّ بعد ذلك ليبيِّن لهم سبيل الخلاص من هذا التَّقصير، وهو التَّوبة الصّادقة والعمل الصّالح[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّصُوحًا﴾: النُّصْحُ: أصلُه يدلُّ على مُلاءَمَة بين شيئَين وإصلاحٍ لهما، والنُّصْحُ: خِلافُ الغِشّ[3]، ضِدُّ الغِشِّ، وكلُّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ؛ ونَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي، أي: أخْلَصْتُ وصَدَقْتُ، والنُّصْحُ:

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 200.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).

مَصْدَرُ نَصَحْتُه[1]. والنَّصيحة: إرادةُ الخيرِ والصّلاح للمنصوح له وإرشادُه له، فهو قولٌ فيه دعاءٌ إلى صلاحٍ، ونهيٌ عن فسادٍ[2]، والنُّصْحُ: تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِهِ[3]. ومعنى توبة نصوحًا: صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ[4].

2) ﴿يُخْزِى﴾: أصْلُ الخِزْي: ذُلٌّ يُستَحيا منْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[5]، وخَزِيَ كرَضِيَ الرَّجلُ يَخْزَى خِزيًا، وهو خزيان: إذا استحيا من قبيح يفعله، والاسم الخزاية. وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخْزاهُ اللّه، أي: أبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[6]، والخِزْيُ: الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضيحَةً[7]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[8]، والهَوانُ[9]. والمعنى هُنا: يوم لا يُهينه ولا يُذلُّه ولا يفضحه[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بالتَّوبة النَّصوح وبيانُ ثمراتها وآثارها

يوجِّه اللّه سُبحانه النِّداء إلى عباده المؤمنين، آمِرًا لهم بأن يتوبوا من ذنوبهم توبة نصوحًا، صادقةً في النّيَّة، خالصةً من الرّياء، مُخلَصةً في الإقلاع والعزم على عدم العَود، ويُبشِّرهم بأنَّ من ثمرات هذه التَّوبة أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سوءَها، ويدخلهم جنّات تجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها، وذلك في اليوم الَّذي يُكرِم اللّه فيه النَّبيَّ ﷺ، ويُعلي شأن المؤمنين معه،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (نصح).
(3) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 106، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 407.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(10) تفسير السَّمعاني: 5/ 477، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 277.

فلا يلحق بهم هَوانٌ ولا خِزْيٌ. يومئذٍ يسري النّور بَيْنَ أيديهم وعن أيمانهم، وهو نور أعمالهم، وهم يدعون الله تعالى قائلين: رَبَّنا زدنا من هذا النّور، وأتْمِمْه لنا، حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمام، واغفر لنا ذنوبنا، ونجِّنا من عواقبها، إنَّك وحْدَك بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (يا) وسِرُّ النِّداء بها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ هو النِّداء الثّاني الذي يوجّهه الله تعالى إلى عباده المؤمنين، وهو نداء يُخاطب به من وُعِظوا وقُدّمت لهم النَّصيحة[2]، ونودوا بأداة البعد الدّالَّة على عِظَم منزلتهم وشرف مكانتهم؛ لأنَّه نداءٌ لمن وُعِظوا وآنست قلوبهم نور الهداية، فقد أمرهم الله بالتَّوبة إن وقعوا في الذُّنوب؛ إذ في التَّوبة صلاحٌ لأنفسهم، وتزكيةٌ لقلوبهم، فهي امتداد لأمرٍ سابقٍ بأن يصونوا أنفسهم وأهليهم من نار عظيمة، وكيف تُصان الأرواح من عذابها إلّا باجتناب ما يقود إليها[3].

التَّوبة النَّصوح سبيل المؤمنين لمحوِ ما فَرَط من سيِّئاتهم

دلالة تكرار النِّداء لأهل الايمان:

من أسرار إعادة نداء المؤمنين – مع قُرب العهد بالنِّداء الأوَّل – الفصل بَيْنَ خطابهم وخطاب الكافرين، فجاء هذا التَّكرار مقصودًا لا لغرض التَّكرار فحسب، بل لاستدعاء النُّفوس المؤمنة إلى تجديد اليقظة عند كُلِّ نداء، وتفتيح أبواب البصيرة عند كُلِّ خطاب[4].

استدعاء النُّفوس المؤمنة إلى تجديد اليقظة عند كُلّ نداء

كما أنَّ الله ﷻ قد خاطب المؤمنين في النِّداء الأوَّل، آمِرًا إيّاهم

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 109، والواحدي، البسيط: 22/ 26، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.
(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 388.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 367.
(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2165.

بأن يَقوا أنفسهم وأهليهم من نارٍ وقودها النّاس والحجارة، وما يتبعها من العذاب الشَّديد؛ فقد أتبع ذلك في هذا النِّداء بالأمر بالتَّوبة، لتكون تطهيرًا لنفوسهم من أدران الذُّنوب، وصيانةً لهم من السَّيِّئاتِ الَّتي قد تجرُّهم إلى تلك النّار الَّتي أُمروا باتِّقائها، فجاءت التَّوبة هُنا مكمّلةً للتَّقوى هناك، متمّمةً لوسائل النَّجاة[1].

التَّوبة مكمّلةٌ للتَّقوى متمّمةٌ لوسائل النَّجاة

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

في التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تنويهٌ بشأن الإيمان وأهله؛ وذلك لما في الصِّلة من دلالة على العِلَّة والمقتضي للأمر، فالإيمان هو المدار الَّذي يدور عليه الأمر، والسَّبب الَّذي من أجله وُجِّه إليهم النِّداء، ففي ذكر الإيمان تذكيرٌ لهم بما يقتضيه إيمانهم من التَّوبة والإنابة، وتنبيه إلى أنَّ التَّوبة من الذُّنوب من لوازم الإيمان الصّادق. فكأنَّ الآية تقول: يا من اخترتم الإسلام دينًا وحقَّقتم الإيمان، ورضي اللّه عنكم بوصف الإيمان؛ بادروا إلى ما يكمل حالكم، ويطهّر قلوبكم، ويصدِّق إيمانكم، وهو التَّوبة الخالصة من كلِّ ذنب[2].

التَّوبة والإنابة مقتضى الإيمان الصّادق ولازمُه

نكتة حذف مُتعلِّق الإيمان:

حَذْفُ متعلِّق الإيمان في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُفيد للعموم ومُفصِح عن الشُّمول، فالإيمان هُنا مُطلَق، يشمل كُلَّ ما يجب الإيمان به: من الإيمان باللّه، وبرسوله محمَّد ﷺ، وبالقرآن، إذ هو أدلُّ على تمام الإيمان واستكمال مراتب التَّصديق[3].

شمول الإيمان لكُلِّ ما يجب الإيمان به

دلالة أمرِ أهلِ الإيمانِ بالتَّوبة:

الأمر في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ﴾ يحمل معنيين بحسب حال المخاطب:

(1) الفرماوي، السَّهل المفيد: 3/ 466.
(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 478، ومحمَّد عبد المنعم جمال، التَّفسير الفريد للقرآن: 8/ 3138.
(3) ابن وهب، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: (29/ 476).

فما يخصّ المؤمن العاصي، فهو أمرٌ على حقيقته، يُفيد الوجوب؛ إذ التَّوبة فرضٌ عليه لا محيد عنه، وأمّا مَن لم يقع في معصية، فالأمر له على وجه الثَّبات والاستمرار على الطّاعة، مع التَّوقّي والتَّحرُّز من الوقوع في الذَّنب. وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنَّ العصمة ليست إلّا للأنبياء، وأنَّ غيرهم من المؤمنين لا يسلم من الخطأ والزَّلل، فكلّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التَّوّابون. فالمطلوب من المؤمن ليس العصمة من الذَّنب، بل المبادرة إلى التَّوبة إذا ما زلّت به القدم، فجاء الأمر الإلهيُّ ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، مُشتملًا على النُّصح والإرشاد، داعيًا إلى طريق الفوز والنَّجاة. وفيه دعوة إلى تطهير القلوب، وردّ الحقوق إلى أهلها، والرّجوع إلى الله رجوعًا صادقًا، تُحفظ به النَّفس من العذاب، وتُهيَّأ به للجنَّة ورضوان الله[1].

المؤمن لا يَسلَم من الخطأ والزَّلل وعليه المبادرة إلى التَّوبة إنْ زلّت القدم

سِرُّ تقديم نداء أهل الإيمان قبل أمرهم:

في تقديم نداء أهل الإيمان قبل الأمر الإلهيِّ سرٌّ من أسرار العناية الرَّبّانيَّة؛ إذ سبقه خطابٌ يُهيّئ القلوب، ويستنهض الأرواح، ويوقظ الأسماع لتلقّي ما يأتي بعده بعين التفكّر، وأُذُنِ الإنصات، وقلبٍ حاضر متأهّب، فالنِّداءُ الَّذي يُنادي الأرواح بأحبّ أوصافها (الإيمان)، يُشعرها بالقُرب والتَّكريم، ويستدعي منها حالةً من الامتثال، فحين يجيء الأمر بعد هذا النِّداء، يكون قد مَهَّد له السَّبيل، وطرَق باب النَّفس بلينٍ ورحمةٍ، فيُثمر امتثالًا صادقًا.

تهيئة القلوب، واستنهاض الأرواح، وإيقاظ الأسماع لتلقّي ما يأتي بعده

نكتة تعدية فعل التّوبة بـ﴿إِلَى﴾:

تعدية فعل (التَّوبة) بحرف الجَرِّ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تنطوي على لطيفة بلاغيَّة دقيقة؛ إذ يدلُّ هذا الحرف على بلوغ الغاية، فجاء ليُشير إلى أنَّ التَّوبة الحَقَّة هي الَّتي تُفضي بصاحبها إلى الله، وتقوده إلى مرضاته، وتقرّبه من حضرته ﷻ[2].

التَّوبة الحَقَّة طريق الوصول إلى الله تعالى

(1) الباليساني، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2580.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2166.

دلالة حذف مُتعلّق التَّوبة:

أمـارة التَّوبة الشّاملة طهارةُ القلب من كُلِّ تقصير

في حذف متعلِّق التَّوبة في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دلالة بليغة على العموم والشُّمول؛ إذ لم يُقيِّد النَّظم الكريم التَّوبة بذنب بعينه، ليتّسع معنى اللَّفظ ويشمل جميع الذُّنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، مِمّا ورد في سياق السّورة وما لم يرد، وهذا الإطلاق يُشير إلى وجوب التَّوبة الشّاملة، الَّتي يتطهّر بها القلب من كُلِّ تقصير[1].

الموقع النَّحويُّ لقوله ﴿تَوۡبَةً﴾ ودلالته البلاغيَّة:

تـأكيـد الفعل (توبوا)، ولتعزيز معناه وتثبيته في النَّفس

كلمة ﴿تَوۡبَةً﴾ في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ واقعة في مَحلِّ نصبٍ مفعول مطلق، جاءت لتوكيد الفعل ﴿تُوبُوٓاْ﴾، ولتعزيز معناه وتثبيته في النَّفس[2].

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ بين: ﴿تُوبُوٓاْ﴾، و﴿تَوۡبَةً﴾:

تـأكيـد الكلام وتذكير السّامع بعظمة المأمور به

التَّوافق اللَّفظيُّ بَيْنَ الفعل والمصدر ﴿تُوبُوٓاْ﴾، و﴿تَوۡبَةً﴾ يُعدُّ من ضروب الجناس الاشتقاقيِّ، وهو من المُحسِّنات البديعيَّة الَّتي تُقوّي المعنى، وتُضفي عليه جَرْسًا صوتيًّا مؤثّرًا، يؤكِّد الكلام ويُذكِّرُ السّامع بعظمة المأمور به، وهو التَّوبة النَّصوح الَّتي تتكرَّر لفظًا لتتأكَّد في النَّفس معنًى.

دلالة الوصف بـ ﴿نَّصُوحًا﴾ مادَّة وصيغة:

استيفاء شروط التَّوبة سبيلُ قبولها

جاء المفعول المطلق ﴿تَوۡبَةً﴾ مُبيِّنًا للنَّوع؛ إذ أُتبع بالصِّفة ﴿نَّصُوحًا﴾، فبيَّن النَّظم الكريم أنَّ المُراد: توبةٌ خالصةٌ، صادقةٌ، مُستوفية لشروطها، جامعةٌ لمعاني الإخلاص والنَّدم والعزم على عدم العَوْد[3].

---

(1) سليمان الجمل، الفتوحات الإلهيَّة: 8/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 354، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.

(2) محيسن، المستنير في تخريج القراءات المتواترة: 3/ 196.

(3) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والمكّي، المعين على تَدَبُّر الكتاب المبين: 1/ 561.

الدَّلالة على المُبالغة في النُّصح والصدق فيه

وُصِفت التَّوبة بكونها ﴿نَّصُوحًا﴾ بيانًا لنوع التَّوبة المطلوبة، فهي توبة خالصة نقيَّة، قد بلغت الغاية في صدقها؛ و(نصوح) على وزن (فعول)، بمعنى (فاعل) يستوي فيه المُذكَّر والمؤنَّث. وهي صيغة مُبالغة تَدُلُّ على الكثرة والتَّمام، كما يُقال (شكور) و(صبور)، فكأنَّ التَّوبة بلغت من صدق النُّصح مبلغًا يجعلها هي بنفسها ناصحةً لصاحبها، حاملةً له على طريق النَّجاة[1].

بلاغة المجاز في التَّعبير بالنُّصح:

في وصف التَّوبة بـ﴿نَّصُوحًا﴾ مجاز عقليٌّ، أُسند فيه النُّصح إلى التَّوبة، والنُّصح إنَّما هو في الحقيقة من شأن التّائب لا التَّوبة، فهي لا تنصح بذاتها، وإنَّما التّائب هو من ينصح نفسه بإحسان الإنابة والرُّجوع، فيأتي بالتَّوبة بها على وجهها، فجاء الإسناد من باب المجاز، لعلاقة المصدريَّة، فجُعل الفعل في حُكم الفاعل[2].

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالنُّصح:

من مظاهر صِحّة التوبة وقبولها أنَّها تغرز في النَّفس العزم على عدم العَوْد إلى الذَّنب

والوصف أيضًا من قبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شُبِّهت التَّوبة الَّتي لا غشَّ فيها ولا تردّد، بإنسان ناصح يعظ صاحبه ويزجره عن العود، ثمَّ حُذف المشبَّه، وأُقيم عليه دليل من لوازمه، وهو النُّصح، فجاءت ﴿نَّصُوحًا﴾ استعارةً تخييليّة، تُجسِّد التَّوبة في صورة قوَّة ناصحة موجِّهة[3]؛ وفي معنى (النَّصوح) أيضًا ما قيل من اشتقاقها من النَّصاحة، وهي الخياطة، فكأنَّ التَّوبة تُشَبَّه بخياطةٍ تُصلح ما خَرَقَتْه الذُّنوب من رداء النَّفس وثوب الطّاعة، فتُجبِر الفَتْقَ، وتعيد للنَّفس صفاءها. وفيه على هذا المعنى استعارة تقوم على تشبيه المعقول بالمحسوس، حيث شُبِّهت التَّوبة الخالصة، وهي أمر معنويٌّ،

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 4/ 226، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 28/ 5951.
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 569، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 573، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 61.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 368.

بالخياطة، وهي فعل محسوس يُصلِح ما تمزَّق، وقد ذُكر في الكلام المشبَّه به، وهو الخياطة، وأُريد المشبَّه، وهو التَّوبة[1]، فكانت استعارة مكنيَّة مرشَّحة.

ويترجّح وجه الاستعارة عند التَّأمُّل[2]؛ لما فيه من إضفاء الرّوح والمعنى على التَّوبة، حتَّى تبدو ككائن حيّ، فيه قوَّة الإرادة والنَّهي، تقف سدًّا منيعًا بين التّائب وبين ماضيه، وتحمله إلى رضا الله، وتمضي به في طريق الطُّهر والصَّلاح، فلا يزال يسمع صوتها في قلبه، حتَّى يبلغ مأمنه من النّار، ويُبشَّر بالجنَّة دار القرار.

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في ﴿نَّصُوحًا﴾:

الدَّلالة على عظمة هذه التَّوبة من جهة حقيقتها وصدقها، وبيانٌ لفعل التّائب وإخلاصه

اخْتَلَفَ القرّاء في ﴿نَّصُوحًا﴾، فقرأ شُعبة عن عاصم بِضَمِّ النّونِ: ﴿نُّصُوحًا﴾، وقَرَأ الباقونَ بِفَتْحِها: ﴿نَّصُوحًا﴾[3]، فقراءة الجُمهور على فتح النّون: ﴿نَّصُوحًا﴾، وهي صفةٌ للتَّوبة، على وزن فَعول من صيغ المُبالغة، كقولهم: (رجل صبور)، و(عبد شَكور)، فالمعنى: توبةٌ قد بلغت الغاية في النُّصح، خالصةٌ في مقاصدها، صادقةٌ في طهارتها، تُخلِّص صاحبها وتُنجيه، كأنَّها بذاتها تنصح التّائب، وتردُّه عن مواضع الزَّلل. أمّا قراءة أبي بكر عن عاصم بالضَّمِّ ﴿نُّصُوحًا﴾، وهي على تأويلٍ آخر؛ إذ تكون مصدرًا، فيكون المعنى: توبوا إلى الله نُصوحًا لأنفسكم، أي: توبةً تنصحون بها أنفسكم، وتبذلون فيها خالص جهدكم في الرُّجوع إلى الله، كما يُقال: (نصحت له نصحًا ونُصوحًا)[4].وقال بعضهم: المعنى على هذه القراءة أنَّ التَّوبة ذات نُصحٍ خالصٍ للنُّفوس[5]، فهي لا يُراد بها

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 225، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 164.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 368.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 389.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 199، والسَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 3/ 470.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 311.

رياء ولا تسويف، بل هي نابعة من إرادة الصَّلاح والإنابة. وعلى كلتا القراءتين، تجتمع الدَّلالة على عظمة هذه التَّوبة المطلوبة: فهي في الأولى صفة للتَّوبة من جهة حقيقتها وصدقها، وفي الثّانية بيانٌ لفعل التّائب وإخلاصه في توبته لنفسه وربِّه، فكلتاهما تلتقيان في الدَّعوة إلى توبة صادقة، بالغة في الخلوص، عميقة الأثر في النُّفوس.

بلاغة الإطناب في الجُملة الكريمة:

الوفاء بالمعنى المطلوب من هذه التَّوبة

في قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ تجلَّت بلاغة الإطناب في أبهى صورها، حيث زوِّد الأمر بالتَّوبة بما يُغني المعنى ويزيده بيانًا وتوكيدًا، فلم يقتصر النَّظم الإلهيُّ على الفعل ﴿تُوبُوٓاْ﴾، بل أتبعه بالمصدر ﴿تَوۡبَةٗ﴾، ليؤكِّده، ثُمَّ زاده بيانًا بصفة ﴿نَّصُوحًا﴾، فكان في هذه الألفاظ القليلة وفاءٌ بالمعنى المطلوب؛ إذ دلّ على أنَّ التَّوبة المطلوبة ليست أي توبة، بل توبة صادقة بالغة الغاية في الإخلاص، تُصلح القلب وتردّ العبد إلى مولاه ردًّا جميلًا.

دلالة فصل قوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ عمّا قبله:

تعليل للأمر بالتَّوبة النَّصوح وبيان ثمرتها الطَّيبة

جاءت الجُملة الكريمة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ في مقام التَّعليل للأمر بالتَّوبة النَّصوح، وكأنَّ السّامع وقد سمع النِّداء الإلهيَّ الَّذي نادى قلبه فسأل: ولِمَ هذه الدَّعوة إلى التَّوبة؟، فجاء الجواب مستأنفًا مفصولًا، على وجه شبه كمال الاتِّصال، الَّذي هو من أبلغ ضروب البلاغة وأشدّها تأثيرًا، وهذا الفصل يُحدث في نفس المُتلقّي تشويقًا يوقظ الوعي، ليتلقّى التَّعليل وكأنَّه جواب مُنتظر، فإذا استقرّ المعنى في القلب، أورثه ذلك انقيادًا وامتثالًا عن رغبة ومَحَبَّة[1].

دلالة التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضميرهم:

في إضافة اسم الجلالة إلى ضمير المؤمنين، مع التَّعبير عنه بلفظ

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.

الرُّبوبيَّة دون غيره سِرٌّ بلاغيٌّ لطيفٌ، إذ اختير عنوان الرُّبّوبيَّة لما يحمله من معاني اللُّطف والرِّعاية والتَّدبير والإصلاح؛ فـ(الرَّبُّ) هو المُتكفِّل بشؤون عباده، المُصلِح لأحوالهم، المتعهِّد لهم بالنِّعَم، الرّاعي لأرواحهم وأبدانهم، فجاء الخِطاب به مُناسبًا لحال التّائب المُقبل، المُنكسر بَيْنَ يدي مولاه. ثُمَّ إنَّ إضافته إلى ضميرهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ جاء تشريفًا وتخصيصًا وتقريبًا، ليَشْعُرَ المُخاطَبون بأنهم ما زالوا في حظيرة العناية، لم يُقْصِهِمُ الذَّنب، ولم يُبعِدهم التَّقصير، بل هم محلُّ الرَّحمة، ومهوى لطف الله - فكان ذلك التَّعبير أحرى بمقام الانقطاع عن الذِّنب، والرُّجوع إلى كنف التَّوبة[1].

من صور تشريف المُخاطَبين إشعارهم بأنَّهم ما زالوا في حظيرة العناية، لم يُقصِهم الذَّنب، ولم يُبعِدهم التَّقصير

سِرُّ التَّعبير عن مغفرة السَّيئات ومحوها بالتَّكفير:

اختير لفظ التَّكفير في قوله تعالى: ﴿يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ دون غيره من الألفاظ، لما في مادّته من الدَّلالة على السَّتْر والتَّغطية؛ إذ أصل الكلمة يدلُّ على التَّغطية المحكمة، ومنه سُمّي الكافر؛ لأنَّه يُغطّي قلبه عن الإيمان، وسُمّيت الكفارة؛ لأنَّها تستر الذَّنب وتمحوه[2].

المبالغة في بيان عظمة المغفرة وكمال الطُّهر بعد التَّوبة

وقد ورد هذا التَّعبير في مقام التَّرغيب والتَّلطُّف الإلهيِّ، لما فيه من مبالغةٍ في بيان عظمة المغفرة وكمال الطُّهر بعد التَّوبة، فهو يُصوِّر مغفرةً تغمر الذَّنْبَ وتغطّيه تغطيةً عظيمةً وتُخفيه كأنْ لم يكن، وتستر المعصية عن سجلِّ الحساب، وتُطَهِّر النَّفس من آثارها[3].

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يُكَفِّرَ﴾:

في التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يُكَفِّرَ﴾ دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، فاختير المُضارع ليدلَّ على أنَّ مغفرة الله ممتدَّة لا تنقطع،

مغفرة الله للعبد مستمرَّة ما دام العبد يُقبل عليه بتوبة صادقة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.

(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كفر).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 201، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.

فهو يمحو الذُّنوب عنكم على وجه دائم، ويتجاوز عن السَّيِّئاتِ في كلِّ حين، ما دام العبد يُقبل عليه بتوبة صادقة وإنابة خالصة، فالغفران جارٍ، والصَّفح مستمرٌّ، والتَّكفير مُتتابع.

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ والمضارع:

الـدَّلالـة على تَـرتُّـب التَّكفير عـلى الـتَّـوبـة مُباشرة

في التَّعبير بالمصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ و﴿يُكَفِّرَ﴾ دلالة دقيقة على ترتُّب التَّكفير على التَّوبة مباشرة، إذ جاءت ﴿أَن﴾ والفعل المُضارع لتُفيد معنى المصدر، فصار المعنى: (عسى ربُّكم تكفيرَ سيِّئاتكم)، وهذا البناء يوحي بأنَّ الجزاء معقود على السَّبب بلا فاصل، وأنَّ مغفرة الله لاحقة لتوبة العبد فورًا، جزاءً عاجلًا لصدق الإنابة[1]. وفي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل أيضًا ولا سيَّما مع (أنْ) دلالةٌ على مجرّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، وبذا يكون نفس التَّكفير هو المراد دون صفة من صفاته، وكيفيّاته.

وكذلك علينا أن لا ننسى أنَّ خبر (عسى) لا يكون إلّا مضارعًا، ولم ترد (عسى) في القرآن الكريم إلّا ومضارعها مسبوقٌ بـ (أنْ) المصدريَّة. وكذلك (عسى) من الله تعالى في القرآن الكريم تُفيد التَّحقيق.

إسناد الفعل إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ:

عـطـايـا الـرَبِّ الـكـريـم تَـفـوق توقّع التّائبين

إسناد الفعل ﴿يُكَفِّرَ﴾ إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ يحمل في طيّاته إيحاءً عظيمًا باليقين والطُّمأنينة؛ إذ دلَّ على أنَّ الَّذي يكفّر السَّيِّئاتِ هو الله نفسه، ربّ العظمة والجلال، فكان ذلك أبلغ في ترسيخ الثِّقة بوقوعه، وأشدَّ تأثيرًا في قلوب التّائبين، فإذا كان العطاء يُقاس بقَدْر المعطي، فما ظنّك بعطيّة الرَبِّ الكريم، واسع المغفرة، الَّذي لا يعجزه شيء؟[2].

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.

سِرُّ إيراد ضمير المخاطبين مجرورًا بـ (عن):

التَّوبة الصّادقة تنزع الذَّنب نزعًا من صحائف التّائبين الصّادقين

إيراد ضمير المُخاطَبين مجرورًا بـ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، مع كون (عن) تُفيد المجاوزة؛ يَشي بمعنًى رفيعٍ ودلالة مؤثِّرة؛ إذ يوحي بأنَّ هذه السَّيِّئات -على كثرتها وقبحها- تُدفع عن التّائب دفعًا، وتُبعد عنه إبعادًا تامًّا، حَتَّى ليُخيّل للنّاظر أنَّها ما صدرت عنه قطُّ، ولا كانت من شأنه ولا صفته.

فكأنّ التَّوبة الصّادقة تنزع الذَّنب من صحائفهم نزعًا، وتفصله عن ذواتهم انفصالًا، فيغدو التّائب نقيًّا، بريئًا من سَيِّئاتِه كما يُبرَّأ السَّليم من الدّاء[1].

نكتة إضافة السَّيِّئاتِ إلى ضميرهم:

نسبة السَّيِّئات إيقاظٌ للضَّمير وتحريكٌ للقلب نحو الإنابة

في إضافة السَّيِّئات إلى ضمير المُخاطبين في قوله تعالى: ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ إشارة لطيفة لإيقاظ الضَّمير وتحريك القلب نحو الإنابة؛ إذ تُسند إليهم السّيِّئات، لتقرير أنَّها صدرت منهم، وأنَّهم هم أهلها، وأنّ ربَّهم هو الَّذي سترها عليهم عنايةً بهم واهتمامًا بشأنهم، ولا شكّ أنّ استشعار هذا المعنى يزيد من إثارة المُخاطبين إلى امتثال الأمر بالتَّوبة النّاصحة بعد التَّقصير في حقِّ الله تعالى، وحقِّ رسوله وحَقِّ النَّفس والأهل[2].

دلالة عطف إدخال الجنّات على تكفير السَّيِّئات:

لما ذكر نفع التَّوبة في دفع المضارّ، ذكر نفعها في جلب المسارّ

لمّا بيَّن الله تعالى أثر التَّوبة في دفع المضارّ وتكفير السَّيِّئات، أتبع ذلك بذكر أثرها في جلب المسرّات ونوال الثَّواب، فقال: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، فجاء الفعل معطوفًا بالواو على ما قبله، فمتى تحقّقت المغفرة، تحقّق دخول الجنَّة تبعًا لها لا محالة؛ فالتَّكفير سابق في التَّحقُّق ومُمهِّد في المعنى،

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201.

إشعارًا بأنَّ رحمة الله لا تقف عند ستر الذَّنب، بل تمتدّ لتفيض بالنَّعيم المقيم[1].

دلالة إسناد فعل الإدخال إلى ضمير الرَّبِّ سبحانه:

توليّ الله تعالى الإدخال إلى الجنّة تكريم مُزدان بالرَّحمة والعناية الإلهيّة

في إسناد فعل الإدخال في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ، إشارة سامية إلى عِظَم هذا الفعل ورفعة شأنه؛ إذ إنّ المُدخِل هو الله ﷻ، فهو إدخال تُجلِّله الرَّحمة، ويزدان بالتَّكريم، وتحفُّه العناية الإلهيَّة من كُلِّ جانب[2].

نكتة تنكير ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وجمعها:

الدَّلالة على سَعة النَّعيم وشموله

جاء لفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في الآية منكّرًا وذلك للدَّلالة على سَعة النَّعيم وشموله، فهو نعيم متنوّع شامل لجميع ألوان الفضل والإكرام الرَّبّانيِّ، لا يشوبه نقص، ولا يحدّه وصف، فكان التَّنكير إشارة إلى عِظَم ما لا يُحدّ، واتّساع ما لا يوصف.

الدَّلالة على كثرة المُخاطَبين وتفاوت المنازل وتعدّد الدَّرجات

وجمع (الجنّات) في هذا الموضع يدلُّ على كثرة المُخاطَبين؛ لأنَّ لِكُلٍّ منهم جنَّةً، ويوحي بتفاوت المنازل وتعدّد الدَّرجات[3]، فليست الجَنَّة درجةً واحدةً، بل مقامات مرتَّبة بحسب حال التّائبين، وصدق توبتهم، وعمق إخلاصهم. وفي هذا التَّعبير إغراء ضمنيٌّ ونداء خفيٌّ إلى التَّسابق في بلوغ أعلى مراتب التَّوبة النَّصوح، طمعًا في نيل أرفع درجات الجنّات وأعلاها.

الموقع النَّحويُّ لقوله ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ ودلالته في مقام التَّنعُّم:

الدَّلالة على الحياة الأبديَّة وكمال اللَّذَّة في الجَنَّة

جاءت جملة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ نعتًا لقوله ﴿جَنَّٰتٖ﴾، على ما هو جارٍ في أسلوب القرآن، حيث تُذكر الجنّات مقرونةً بهذه الصِّفة الدّالَّة على تمام النِّعمة وكمال البهجة، إذ إنَّ جريان الأنهار

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2171.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 64.

إشارة الى الحياة الأبديَّة وهو من أعظم ما يُكمّل لذَّة الجَنَّة، ويُعلي به قدر نعيمها[1]. ثمَّ إنّ ريَّ أشجارِ الجنّاتِ يزيدُ في نضارتها، ولأنَّ النَّظرَ إلى مياهِ الأنهارِ مِنْ ألوانِ النَّعيم، ولأنَّ جريانَ الأنهارِ يُسبِّبُ كثرةَ الرّياضِ والأشجارِ، والسّاحاتِ والدّيارِ[2].

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾ إيحاءً بدوام الجريان واستمراره بلا انقطاع، إذ أُثر استخدام المُضارع للدَّلالة على الحركة المُتجدِّدة؛ لأنَّ أحسنَ الماء وأطيبَه ما كان جاريًا غير آسِنٍ، فهو دائم النَّقاء، مُتجدِّد الصَّفاء[3]. وذلكَ يزيدُ النَّعيمَ والبهجةَ في نفوسِ أهلِ الجنَّةِ، ويقوّي التَّعريف بدوام تنوُّعها وزهرتها وعظيم بهجتها[4].

الإيحاء بدوام الجريان واستمراره بلا انقطاع

بلاغة المجاز العقليّ في التَّعبير بجريان الأنهار:

إسناد الفعل ﴿تَجۡرِي﴾ إلى الأنهار من باب المجاز العقليِّ، بعلاقة المكانيَّة، وفيه لمسة تصويريَّة بارعة، تُبرز حركة الماء في سرعة جريانها، حتَّى يُخيّل للنّاظر أنّ الأنهار هي الَّتي تنساب وتتحرَّك، لا الماء وحده، وذلك لما في العبارة من إيحاء بالقوَّة والسَّعة، ولو قُصِر التَّعبير على قول (تجري المياه)، لما كشف عن سِرِّ روعة جريان الماء في الأنهار ولكان أقصى ما يستشفُّ منها مجرَّد وصف الماء بالجريان.

إبراز حركة الماء في سرعة جريانه وانسياب حركته

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لابتداء الغاية المكانيّة، وتدلُّ على أنّ ماءها غير مجلوب، بل كلُّ مكان منها متهيِّئٌ لأنْ ينبع منه ماء يجري؛ لأنَّ أرضها معدن المياه فهي لا تزال يانعة

كلُّ مكان في الجنّة متهيّئٌ لنبع جارٍ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 64، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 400.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2172.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 165.

غضَّة وفي ذلك ثباتٌ لبهجتها ودوامٌ لزهرتها ونضارتها[1]. ثمّ إنّ المياهَ لو عمَّتِ الأرضَ لا تتركُ فيها مُستقَرًّا؛ ولو استغرقتِ المكان أفسدت؛[2]، ولذلك لم يُقَلْ: تجري تحتَها الأنهارُ.

سِرُّ حذف المتُعلِّق في الجُملة الكريمة:

تَنَعُّم الفكر واتِّساع التَّصوُّر ولذَّته

في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، حُذف المتعلِّق بـ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، وهو (القصور) و(الأشجار)، اعتمادًا على ما يُفهم من السّياق، وفي هذا الحذف بلاغة عالية، إذ يُترك للعقل والخيال أن يتأمَّل ما ﴿تَحۡتِهَا﴾، فيتصوَّر قصورًا شامخة، وأشجارًا وارفة، تتخلّلها الأنهار وتتدفّق من تحتها المياه وفيه من تَنَعُّم الفكر واتِّساع التَّصوُّر ولذَّته ما فيه[3].

بلاغة تقديمِ القيد ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

تعجيل البهجة والتَّشويق إليها

قُدِّمَ شبه الجملة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لتعجيل البهجة والمسرّة للمؤمنينَ، والتَّشويق إلى بيان الجاري وفاق هذه الهيئة العجيبة المتهيّئ كلّ موضع فيها الى جريان الماء.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

النَّعيم المعلوم في الأذهان يُبهج النُّفوس ويُنعش الأرواح

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، جاءت (أل) لتعريف العهد، مُشيرة إلى الأنهار الأربعة المعهودة في أوصاف الجنَّة، وهي: نهر الماء، ونهر اللَّبن، ونهر العسل، ونهر الخمر، كما ورد في سورة مُحمَّد ﷺ، فليس الحديث عن أنهار مجهولة، بل عن نعيم معلوم في الأذهان، وأوصافٍ معهودة تُبهج النُّفوس وتُنعش الأرواح، وتُرسِّخ صورة النَّعيم في أذهان المؤمنين، كأنَّها حاضرة منظورة[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 277، 5/ 214.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 400.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.
(4) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 42، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.

دلالة فصل قوله ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي﴾:

تفصيل الجزاء المعنويِّ بعد الجزاء الحسّيّ

جاء الاستئناف في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ ليُفيد مزيد عنايةٍ وبيانٍ؛ إذ فُصِلت الجُملة لتُبرز عظمة الجزاء المعنويِّ الَّذي يُضاف إلى الجزاء الحِسيِّ للتَّوبة، فكما بَشَّر التّائبين بمغفرة الذُّنوب ودخول الجنّات، أُلحق بها وعده بالتَّكريم، ورفع المهانة، وصون الكرامة من كلِّ ما يُذلُّ أو يُخزي، فهذا الفصل يُشعِر باستقلال مقام ذلك اليوم، وسمو منزلته؛ إذ هو موعد الوعد، ومشهد التَّكريم. وقد ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قوله تعالى ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، غير أنَّ الأوْلى أن يُعلَّق بـ عامل مقدّر، كأن يُقدَّر في السّياق: (اذكروا يوم لا يُخزي)، وذلك لتحاشي التَّكرار المعنويِّ، فإنَّ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ﴾ يتضمَّن وعدًا بالمغفرة والرِّضوان، وهو بذاته مُستلزم لنفي الخِزي[1].

دلالة الظَّرفية الزَّمانيَّة في ﴿يَوۡمَ﴾ وتعليقها بنفي الخزي:

يوم القيامة زمان وقوع الجزاء الإلهيِّ، ويوم الوعد والوفاء

جاء الظَّرف الزَّمانيُّ ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعلِّقًا - على أحد الأوجه - بالفعل ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، ليبيِّن زمان وقوع الجزاء الإلهيِّ ووقته، وهو يوم القيامة، يوم الوعد والوفاء، يوم يُميَّز فيه المكرَّمون، وهذا التَّعلُّق يُعَدُّ بمثابة تخلُّص بديع إلى الثَّناء على النَّبيِّ ﷺ وأتباعه، فالخطاب وإن كان موجَّهًا للتّائبين، فقد انصرف إلى مقام التَّشريف للنَّبيِّ والمؤمنين معه، في سياق ترسيخ العاقبة الحُسنى، وتثبيت وعد الكرامة، في اليوم الَّذي تظهر فيه نتائج التَّوبة، ويُجلى فيه فضل الله على أوليائه[2].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 253.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 14/ 1034.

سِرُّ العدول عن ذِكْرِ إكرام المؤمنين والثَّناء عليهم بنفي الخزي:

تطييب خواطر أهـل الإيـمـان والتَّعريض بأهل الكُفران

في نفي الخِزْي عن أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ثناءٌ رفيعٌ يُفهم في طيّاته التَّعريضُ بمن لم يُؤمن؛ إذ يدلُّ على أنَّ الكافرين يَحيقُ بهم الخِزيُ يوم القيامة، وفي هذا التَّعبير تطييبٌ لخواطر المؤمنين واستحمادٌ لهم؛ إذ عصمهم من حال الكافرين، وجعلهم في مأمنٍ من خزيٍ مُهين[1].

نوع الإضافة في جُملة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾:

نـفـي الـخـزي فـي مـواضـع الـشِّـدّة من مظاهر التَّكريم والتَّشريف

جملة ﴿لَا يُخْزِى﴾ واقعة في محلّ جرٍّ بالإضافة إلى ﴿يَوْمَ﴾، وهي إضافة تُفيد بمفهوم المخالفة أنّ الخِزي من خصائص ذلك اليوم، وعلامة من علاماته البارزة. ومن ثمَّ فإنَّ نفي الخِزي عن النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين في هذا الموطن العصيب؛ يُعدُّ مظهرًا من مظاهر التَّكريم والتَّشريف، وسببًا للتَّطمين والبشارة، ودليلَ سعادة ونجاة، وهو لون من ألوان النَّعيم المعنويِّ الَّذي يُضاف إلى ما وُعِد به التّائبون من النَّعيم الحسيِّ، ليكتمل لهم السُّرور في الآخرة، حسًّا ومعنًى[2].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يُخْزِى﴾ مادّة وصيغة:

حقيق بالمؤمنين التَّنزيه والأمان، وبالكافرين الذُّلّ والهوان

لفظ ﴿يُخْزِى﴾ قد يكون مأخوذًا من الخِزي بمعنى الفضيحة والذُّلِّ، وعليه يكون في التَّعبير تعريض بالكافرين، الَّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: 27]، وهذا المعنى ينسجم مع سياق التَّهديد والوعيد للكافرين. وقد يُحمل اللَّفظ على معنى الخزاية، أي الحياء والخجل، وهو خزيٌ نفسيٌّ يُلازم المرء حين يرى نقصه، فيستولي عليه الحزن والنَّدم؛ وهو ما يُفهم من دعاء أهل الإيمان: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والرَّسعني، رموز الكُنوز: 8/ 192.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2173.

﴿تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: 194] وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾ [الشعراء: 87][1].

الخزي منفيٌّ عن النَّبيِّ وللمؤمنين في كُلِّ موقف من مواقف القيامة

في التَّعبير بالفعل المُضارع المنفيّ ﴿لَا يُخۡزِي﴾ دلالة على استمراريَّة نفي الخزي وتجدُّد معناه، فالمعنى: أنَّ الخِزي مرفوعٌ على الدَّوام عن النَّبيِّ ﷺ، والمؤمنين، في كلِّ حالٍ وآن، لا يعتريهم في كُلِّ موقف من مواقف القيامة، ولا في موطن من مواطن الفزع، ولا عند العرض والحساب.

نُكتة تعدية ﴿يُخۡزِي﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بعد إسناده إلى اسم الجلالة:

الإيماء إلى لزوم الأدب مع النَّبيِّ ﷺ وتوقيره

تعدية فعل ﴿يُخۡزِي﴾ المنفيِّ إلى ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ ﷺ، بعد إسناده إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، لا تخلو من دلالة رفيعة، فهي إلى جانب ما تُفيده من تكريم وتشريف، تومئ إلى لزوم الأدب مع النَّبيِّ ﷺ، وتوقيره، فقد خصّه بمقام الرِّفعة والتَّنزيه، فكأنَّ التَّعبير يُلفت المخاطَبين إلى علوّ منزلته عند ربّه، ووجوب معاملته بما يليق بمن رفعه الله عن الخِزي، وقرّبه في الدُّنيا والآخرة[2].

نكتة عطف (الَّذين آمنوا) على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

نكتة التَّعبير بصفة (النَّبيّ) مادّة وصيغة

لم يذكر الله تعالى رسوله ﷺ، باسم ولا بصفة غير ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾؛ ونبيٌّ على صيغة (فَعيل) وهو بمعنى فاعل ومفعول، ونبا: ارتفع، فإن كان بمعنى (فاعل) فهو رافع من آمن به، وإن كان بمعنى (مفعول) فهو مرفوع قد رفعه الله بالرِّسالة، فكيف يُخزى من رفعه الله تعالى ومن ارتفع بالإيمان بالرِّسالة؟!.

تشريفُ أهل الإيمان وإعلاء قدرهم

اختلف العُلماء في الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، فمنهم من ذهب إلى أنَّها للعطف، عطفًا على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، ومنهم من رأى أنَّها للاستئناف النَّحويِّ، وأنَّ (الَّذين آمنوا) مبتدأ، خبره

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المُحرَّر الوجيز: 5/ 334، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 65.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2174.

﴿مَعَهُۥ﴾، ومنهم من جعل الخبر هو ﴿نُورُهُمْ﴾، إلى غير ذلك من الأقوال. غير أنَّ الأرجح - فيما يظهر - أنَّ الواو للعطف، وهو الأوفق بسياق السّورة، وما اشتملت عليه من الدَّعوة إلى تعظيم النَّبيِّ ﷺ، وتوقيره، والتَّأدُّب معه في القول والعمل، وترك المُماراة والمُكايدة[1].

وفي اقتران ذِكْرِ النَّبيِّ ﷺ، بذكرهم تشريفٌ وتعظيمٌ لهم، وإعلاءٌ لقدْرهم، لا تعريضٌ بالنَّبيِّ ﷺ،

وإظْهارٌ لعلوِّ منزلتهم[2].

بلاغة الكناية في التَّعبير بالخزي:

في التَّعبير بالخِزْي كناية عن العذاب، لما بينهما من مُلازمة، إذ لا يخلو العذاب من خزي وذلٍّ، وعليه فاللَّفظ يشمل كُلَّ خزي يكون سببًا من أسباب الهوان يوم القيامة، سواء أكان من الحساب، أو من الفضيحة بكشف الكتاب، أو من العقاب الجسديِّ والنَّفسيِّ، أو غيرها من ألوان الخزي الَّتي تُحيط بالكافرين في ذلك اليوم العظيم[3].

الدَّلالة على أسباب الهوان يوم القيامة

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته (الَّذين آمنوا):

التَّعبير عن المؤمنين في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، بالاسم الموصول، يتضمَّن معنى التَّعظيم والتَّشريف لهم؛ إذ في إيثار هذا الأسلوب ما يدلُّ على التَّوسِعة والعموم، بحيث يشمل كُلَّ من صدَّق بالنَّبيِّ ﷺ، ووقَّره، سواء من عاصروه وشهدوا دعوته، أو من جاؤوا بعده إلى يوم الدِّين، فالاسم الموصول شاملٌ لِكُلِّ من انتسب إلى هذا الإيمان حقًّا، مِمّا يزيدهم رفعة وفضلًا[4]. وفي الموصول أيضًا إيذانٌ بأنَّ سببَ انتفاءِ الخزي عنهم هو إيمانُهم[5].

الدَّلالة على العموم في المؤمنين والثَّناء عليهم بما في حيز الصِّلة من معنى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 356.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 370.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 65، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 479.
(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2174.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370.

فائدة ذِكْرِ المعيَّة وبيان تَعلُّقها:

تـشـريـفـهـم بـالـقُـرب منه في الآخـرة كما شُرِّفوا بالإيمان به في الدُّنيا

لفظ المعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يُفيد معنى الاجتماع، والمقصود أنَّ الله لا يُخزي هذا الجمع المبارك الَّذي يسعى نورهم بين أيديهم، فكان في اجتماعهم مع نبيّهم تكريمٌ لهم وتعظيم؛ إذ شُرّفوا بالقرب منه، كما شُرّفوا بالإيمان به. فالمعيَّة هنا معيَّة رتبة وولاية واتِّباع، لا مجرَّد الصُّحبة الزَّمنيَّة، وهي معيَّة تُنجي وتكرّم وتُقرّب[1].

ولفظ (مع) يَحْتَمِل أن يتعلَّق بحال محذوفة من (الَّذين آمنوا)، أي: في حال كونهم مع النَّبيِّ ﷺ، في انتفاء خزي الله عنهم، وعلى هذا الوجه يكون عموم اللَّفظ مخصّصًا، فلا يشمل من ارتدّ بعد الإيمان ومات على الكفر؛ لأنهم لم يثبت لهم شرف المعيَّة، ولا استحقّوا النجاة من الخزي. ويَحتمِل أن يتعلَّق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: الَّذين آمنوا به وصحبوه، فيكون المراد بهم أصحاب النَّبيِّ ﷺ، الَّذين ثبتوا على الإيمان، ولم ينقلبوا على أعقابهم، فتدلّ الآية حينئذٍ على فضيلة عظيمة لهم، وتشير إلى وعدٍ بالمغفرة والنَّجاة لجميع الصَّحابة رضوان الله عليهم، ممَّن تحقّقت فيهم الصُّحبة والإيمان الكامل[2].

نُكتة فصل قوله ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾:

بيانُ كيفيَّة نفي الـخـزي ووجـه تَحقّق الكرامة

جاءت جملة: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، لكمال الاتِّصال في المعنى بينهما، فهذه الجملة مُفسِّرة لكيفيَّة نفي الخزي، ووجه تَحقّق الكرامة، فالنّور الحاصل بَيْنَ أيديهم وحولهم هو المظهر الحسّيُّ والمعنويُّ لرفع الخزي عنهم. ويَحْتَمِل أن تُؤخذ على جهة التَّوكيد، فتجيء الجملة لتُعزّز هذا الوعد

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370.

الإلهيَّ بنجاة النَّبيِّ ﷺ، والمؤمنين معه كما يُمكن أن يكون في الجملة الاستئنافيَّة تعريض بخصوم أهل الإيمان ومناوئيهم الَّذين حُرموا من هذا النّور، إشارةً إلى المُفارقة الشّاسعة بينهم، حيثُ الظُّلمة والخزي لأولئك، والنّور والرِّفعة لهؤلاء[1].

نكتة إضافة النّور إلى ضميرهم:

الاختصاص بالنّور سِمةٌ للكرامةِ وعلامة للاصطفاء

الضمير في قوله ﴿نُورُهُمْ﴾ عائد إلى النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وإضافة (النّور) إليهم توحي بأنَّ لهم نورًا خاصًّا يمتازون به من غيرهم، ويُعرفون به بين الخلائق يوم القيامة، فهو سمةُ كرامةٍ وعلامةُ اصطفاء، وليست هذه الإضافة من باب التَّعريف الذّاتيِّ للنّور، بل هي إضافة تُفيد الاختصاص[2].

دلالة التّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَسْعَىٰ﴾:

نور المؤمنين يوم القيامة دائم التّجدد والانبساط

التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُفيد صورةً حيَّةً متجدِّدةً توحي بأنَّ نور المؤمنين يوم القيامة دائم التَّجدُّد ومستمرُّ الانتشار[3]، يسعى أمامهم وعلى جوانبهم، فيشقُّ لهم الطَّريق على الصِّراط كما يشقُّ ضوء القمر دُجى اللَّيل البهيم، نورٌ لا يخبو ولا يضعف، يبعث الطُّمأنينة في نفوسهم، ويُجلّي لهم معالم النَّجاة في موطنٍ تزلّ فيه الأقدام وتَدْلَهِمُّ فيه الخُطوب.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بسعي النّور:

إبراز عظمة ذلك النّور وقوّته إيذانٌ بالمهابة، وإظهارٌ للمكانة

في التَّعبير عن امتداد النّور وانتشاره بقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ بليغة، صوِّر فيها النّور بماشٍ يسعى، تشبيهًا لسُرعة انتشاره وشِدَّة ضيائه بسرعة مَشْي السّاعي في الأرض، وفي

(1) الكوراني، غاية الأماني: 1/ 192، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2175.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370، 371.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 10/ 203.

هذا إبراز لعظمة ذلك النّور وقوّته، فهو لا يثبت في موضع واحد، بل يتحرَّك معهم حيثما تحرَّكوا، ويلازمهم كيفما توجَّهوا. وفي هذا دلالةٌ على شرفهم وعلوّ منزلتهم، كما تُرفَع الرّايات أمام الملوك والسّادة، وتُساق الجياد بَيْنَ يدي الخلفاء والعظماء، إيذانًا بالمهابة، وإظهارًا للمكانة؛ فأهل الإيمان في موكب مكرَّم، يُباهي بهم الخلائق في مشهد القيامة العظيم[1].

توجيه المتشابه بين هذه الآية وآية سورة الحديد:

هذه الآية الكريمة الَّتي بين أيدينا جاءت في سياق تعظيم النَّبيِّ ﷺ، ورفع منزلته، وقد قُرن بها ذكر المؤمنين الَّذين آمنوا معه، ممّا يفيد قربهم منه وعلوّ قدرهم؛ ولذلك ناسب المقامُ أن يُقدَّم ﴿نُورُهُمْ﴾ في قوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾، فجاءت الجملة اسميَّةً تفيد الثَّبات والاستمرار، إشعارًا بتمكُّن النّور فيهم، واستقراره في مقام الكرامة. أمّا في سورة الحديد، فالسّياق سياق بشارة عامَّة للمؤمنين يوم القيامة، ولم يُذكر فيها أنَّهم مع النَّبيِّ ﷺ، فكان الأنسب التَّعبير بالفعل: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: 12] للدَّلالة على تجدُّد النِّعمة وحدوثها شيئًا بعد شيء، فناسب ذلك أن تُقدَّم الجملة الفعليَّة لما فيها من تصويرٍ لحركة النّور وبروزه المُتجدِّد[2].

بلاغة التَّشبيه الضِّمنيّ:

في قوله تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ – مع ما ذُكِرَ من الاستعارة السّابقة – تشبيهٌ ضمنيٌّ بديع، يُفهم من السّياق دون أن تُصرَّح فيه أركان التَّشبيه المعروفة، فقد صوَّر النّورُ الَّذي يسبق المؤمنين ويُحيط بهم من أمامهم ويمينهم، وهم يقطعون الصِّراط في طريقهم إلى الجَنَّة؛ بأنَّه يُشبه ضياء القمر الَّذي ينبلج في سواد

نور المؤمن يهدي السّاري، ويُطمئِنُ الخائف، ويشقُّ الظُّلمة بطمأنينة وسكينة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2175.

(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/ 468.

اللَّيل، يهدي السّاري، ويُطمئن الخائف، ويشقُّ الظُّلمة بطمأنينة وسكينة، فكما يُضيء القمر للنّاس طريقهم في ليلٍ بهيم، كذلك نورهم يُضيء لهم سبيل النَّجاة، في مشهد يعكس طمأنينة السَّير، ويسر العبور، ورفعة المنزلة[1].

دلالة التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾:

في تخصيص جهتَي الأمام واليمين بقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، دلالةٌ على رفعة الشَّأن وتمام الكرامة، فإنَّ النّور إذا كان أمامهم، شهدوه بأبصارهم، وساروا فيه مطمئنّين، فكان لهم زينةً ومهابة، وعلامةً ظاهرةً على الفضل والقبول؛ إذ لا يعرفون في طريقهم إلى الجنَّة رجوعًا ولا التفاتًا، ولا يُعرَفون إلّا بالإقدام والثَّبات، وأمّا كونه عن أيمانهم، فلأنَّها جهة السُّؤدد والبركة، وهم من أهل اليمين الَّذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، لا يلتفتون إلى الشَّمائل، ولا تضعف عزائمهم بالتَّردُّد أو الشَّكِّ؛ والاقتصار على ذكر الأمام واليمين لا ينفي إحاطة النّور بهم من كلِّ الجهات، وإنَّما هو لبيان أعظم جهتين في الانتفاع: جهة السَّعي الأماميِّ، وجهة اليمين ذات الشَّرف، فالنّور يفيض ويشعُّ، يُكرم الله تعالى به عباده الصّالحين، فيكون لهم في الظّاهر كرامة، وفي الباطن طمأنينة، وفي المآل بشارةُ النَّجاة[2].

الدَّلالةُ على رفعة الشَّأن والبشارة بالنَّجاة وتمام الكرامة

دلالة قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ على المحذوفات:

عدولُ التَّعبير القرآنيِّ عن استعمال حرف الجَرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ إنَّما هو إشارةٌ بليغة إلى اكتمال النّور في هاتَيْن الجهتين، وامتلائه لهما امتلاءً شاملًا لا يعتريه نقصٌ ولا

الإشارة إلى اكتمال النّور في هاتَيْن الجهتين

(1) الصّابوني، صفوة التفاسير: 3/ 387.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 166، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 479، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 480.

يَحْتَمِل فيه التَّبعيض، ممّا يصوّر كرامةً تامّةً، وهدايةً كاملة ترافق المؤمنين في سيرهم يوم القيامة[1].

سرُّ تخصيص اليمين من بَيْنِ الجهات:

اليمين علامةٌ للسَّعادة، وقائدٌ لهم على الصِّراط إلى الجنَّة

خُصَّت جهة اليمين بالذِّكر؛ لأنَّ أهل السَّعادة يؤتون صحائفهم من أيمانهم، والَّتي بايعوا بها النَّبيَّ ﷺ، على الإيمان والنّصرة؛ بخلاف أهل الشّقاوة الَّذين يؤتون صحائفهم من شمائلهم أو من وراء ظهورهم، فصارت الجهة علامة للسَّعادة، وقائدًا لهم على الصِّراط إلى الجنَّة، وزينةً تُزاد على هيبتهم ونورهم في المحشر. وهم بين منازل السّابقين وأهل اليمين، يسيرون على طريقهم، ويُكرمون بالضّياء من جهاتهم المباركة[2].

دلالة فصل قوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾:

وصف حالهم مع النّور السّاطع بَيْنَ أيديهم وبأيمانهم

جُملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ واقعة في موقع الحال من الضَّمير في ﴿نُورُهُمۡ﴾، وهي كاشفة عن مقام دائم من الافتقار إلى الله تعالى، لا يفارق النَّبيَّ ﷺ، والمؤمنين معه، في الدُّنيا ولا في الآخرة، بل إنّ احتياجهم إلى ربِّهم في دار الكرامة أعظم، لشدَّة رغبتهم في دوام لقائه وتمام نعمته. ومن أبرز مظاهر هذا الافتقار دعاؤهم المُستمرُّ بأن يُتمّ الله لهم نورهم، ويغفر لهم، تعبيرًا عن تعلّقهم برضاه، ورجائهم في كمال القبول[3]. فالجُملة الأولى تصف النِّعمة الظّاهرة (سعي النّور)، وهذه الجُملة تصف حالهم مع تلك النِّعمة ولذلك فُصلت عنها.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

الدَّلالة على تَجدُّد دعائهم واستمرار إلحاحهم

التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ يوحي بأنَّ دعاءهم: ﴿رَبَّنَآ

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 66، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203.

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ صادر عن ضراعة دائمة مُتجدِّدة، لا تنفكُّ تلهج بها ألسنتهم، مجاهرين بها؛ إذ يدركون تمام الإدراك أنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء، وليس لأحدٍ أن يحتجّ عليه بحقٍّ أو يستوجب عليه نعمة. وتزداد شدَّة إلحاحهم في الدُّعاء وصدق اللَّجأ حين يشاهدون انطفاء نور المنافقين، فيزداد خوفهم، ويشتدُّ تضرُّعهم، رجاءَ أن يتمَّ الله لهم نورهم، ولا يسلبهم إيّاه بعد أن أُعطوه[1].

نُكتة حذف أداة النِّداء:

الاكتفاء بالمنادى سُبحانه تُشعر بشِدَّة القُرب منه وقصده وحده

﴿رَبَّنَآ﴾: أصله: يا ربَّنا حُذفت أداة النِّداء اكتفاء بالمنادى سُبحانه[2] ولدلالة الحال على القصد إليه، وفي هذا الحذف إشارة بليغة إلى شدَّة القرب بين العبد وربِّه؛ فكما أنَّ من يخاطب من هو قريبٌ منه لا يحتاج إلى أن يقول (يا زيد)، بل يكتفي بـ(زيد) فقط، فكذلك حَذْفُ حَرْفِ النِّداء في هذا الموضع يُفيد قُرْبَ الله تعالى من عباده المؤمنين، وقُرْبَهم منه في مقام الدُّعاء والضَّراعة، فنادوه مُباشرةً، لفَرْط أُنسهم به، وشِدَّة رجائهم فيه. وكذلك التَّبرُّك بالبداءة باسمه (الرَّبّ) ﷻ.

فائدة النِّداء بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضميرهم:

شِدَّة الافتقار إلى رحمته إشعارٌ باليقين في رعايته، وثِقةٌ مُطلقة بلُطفه

في مقام تضرّعهم، اختاروا مناداة الله تعالى بوصف الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم ﴿رَبَّنَآ﴾، تعبيرًا عن شِدَّة فاقَتِهم وتمام حاجَتِهم إلى رحمته وإحسانه، وإظهارًا لافتقارهم الدّائم إلى نِعَمه في الدّارين، وأنَّهم لا غنى لهم عنه طرفة عين. وفي هذا النِّداء إشعارٌ بيقينهم في رعايته، وثقتهم المطلقة بلطفه، لما يفيض به اسم ﴿رَبَّنَآ﴾ من دلالات العناية والتَّدبير، وكفاية المؤمِّل، وسدّ خَلَّةِ المحتاج، فهو نداء المُحِبِّ الواثق من عناية خالقه ورعاية مُربّيه ومُصلح شؤونه[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 12/ 78.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.

دلالة فعل الطَّلب بقوله ﴿أَتْمِمْ﴾:

الدلالة على افتقارهم، وحُسن أدبهم مع الله ﷻ

الفعل ﴿أَتْمِمْ﴾ خرج عن معنى الأمر إلى الدُّعاء خوفًا وطمعًا؛ لأنَّه صادر من المؤمنين إلى ربِّهم، فهم لا يأمرون بل يدعون ويتضرَّعون، يسألون الله ﷻ إتمام نورهم؛ خوفًا من أن يُصيبهم ما أصاب المنافقين من انطفاء النّور والتَّخبط في الظلمات، وطمعًا في كرمه وما عنده، ودعاؤهم هذا يُعبّر عن افتقارهم، وحُسن أدبهم مع الله ﷻ، كما في استغفار النَّبيِّ ﷺ، مع مغفرة ذنبه، طلبًا لدوام الفضل والرَّحمة[1].

معنى اللّام في ﴿أَتْمِمْ لَنَا﴾، ودلالتُها في الجُملة:

أعظم صور الكرامة تخصيصُ النعم وإدامتُها

اللّام في قوله ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ هي لام التَّخصيص، وهي هنا تفيد أنَّ هذا النّور مطلوب خصيصًا لهم دون غيرهم، لما في ذلك من شِدَّة حاجتهم إليه، وإدامة النِّعمة به، وهذا يُمثِّل أعظم صور الكرامة[2].

نُكتة إضافة النّور إلى ضميرهم:

تعاظمُ النّور يناسب شدّة الإيمان

في إضافة النّور إلى ضميرهم في قوله ﴿نُورَنَا﴾ توكيدٌ للخصوصيَّة المستفادة من اللّام، أي أنَّ لكلِّ واحد منهم نورًا خاصًا به، يتناسب مع درجة إيمانه وعمله الصّالح[3]؛ وهذه الإضافة تُبرز شرف هذه النِّعمة، وأنَّ فقدها بعد نيلها يعدُّ أشدَّ إيلامًا من عدمها من الأصل، لما فيه من اجتماع فقدٍ حسّيٍّ وحرمان معنويٍّ، يورثان قَطْعَ الرَّجاء وانكسارَ النَّفس.

نُكتة عطف طَلَبِ المغفرة بعد إتمام النّور:

مُراعاة مقام الفرح والرَّجاء الَّذي يعيشه المؤمنون آنذاك

قُدِّم الدُّعاء بإتمام النّور على طلب المغفرة، مع أنَّ المغفرة سبب في نيل النّور، مراعاةً لمقام الفرح والرَّجاء الَّذي يعيشه المؤمنون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.
(3) المكي، المعين على تدبر الكتاب المبين: 1/ 561.

آنذاك؛ إذ إنَّهم في موطن نعمة وسعادة، فناسب تقديم مطلب النّور، ثُمَّ جاء طلب المغفرة بعده، لا لأنَّهم استغنوا عنها، بل لإظهار التَّواضع ونفي شبهة الغرور، حتَّى لا يُظنَّ أنَّهم يرون النّور حقًّا مكتسبًا، لا فضلًا مَنَّ اللّه ﷻ به، وفي ذلك غاية الأدب وحسن التَّذلُّل[1].

دلالة فعل الطَّلب بـ(اغفر):

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ خرج عن معنى الأمر إلى الطَّلب والرَّجاء المُتضمِّن للتَّضرّع والابتهال؛ إذ ليس هو أمرًا من المكلَّف لربّه، بل توسُّل من المؤمنين إلى ربِّهم ﷻ العظيم، وقد ورد بصيغة الأمر ليُفيد شِدَّة الحاجة وصدق الرَّجاء، فهو دعاء صادر من جهة دنيا إلى جهة عُليا، طَلَبًا لدوام المغفرة واستمرارها بمحوِ كلِّ نقصٍ كان يميل بهم إلى أحوال المنافقين، في مشهدٍ يجمع بين الافتقار والرَّجاء[2].

الطَّلب والرَّجاء مُتضمِّنٌ التَّضرُّع والابتهال

نكتة تكرار ضمير المُتكلِّمين ﴿لَنَآۖ﴾ في الجُملة:

في تكرار ضمير المُتكلِّمين ثلاث مَرّات أوَّلها مجرورًا بالحرف في ﴿لَنَآۖ﴾، والثّانية مجرورًا بالإضافة في ﴿نُورَنَا﴾، والثّالثة في قولهم ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ تعبيرًا بليغًا عن شدَّة تعلّقهم بما يسألون، وصدق حاجتهم إليه، وفيه توكيد للضَّراعة والابتهال في تحقيق ما يدعون به من مغفرة الذُّنوب وزيادة النّور وعدم حرمانهم من أيِّهما[3].

شِـدَّةُ تَعلُّقهم بـما يسألون، وصِدقُ حاجتهم إلـيـه؛ تـوكـيـدٌ لـلـضَّـراعـة والابتهال

نُكتة حذف مُتعلِّق المغفرة:

حذفُ مفعول ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ يفيدُ الإطلاق، فيدلّ على طلب مغفرةٍ شاملةٍ لكلِّ ذنبٍ أو تقصيرٍ، سواء أكان ظاهرًا أو خفيًّا، كبيرًا أو صغيرًا، ممّا قد يَنْقُصُ من منزلتهم أو يُقرّبهم من حال غير

التَّضرُّعُ جامعٌ يعكس خوفهم مـن كـلِّ ما يُبعدهم عن مقام أهل النّور

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.

المؤمنين[1]، وفيه تضرُّعٌ جامعٌ يعكس خوفهم من كلِّ ما يُبعدهم عن مقام أهل النّور.

دلالة فصل جملة الفاصلة:

فُصلتْ جُملة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عن الَّتي قبلها لاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاءً؛ فالسّابقة إنشائيَّة دُعائيَّة، واللّاحقة خبريَّة تقريريَّة، وفي هذا الفصل ما يَدُلُّ على شبه الانقطاع بينهما؛ إذ هي تفصيل لما سبق من جوابِ سؤالٍ قد يتبادر إلى الذِّهن بعد الدُّعاء السّابق؛ فكأنَّ قائلًا قال: لماذا طلب المؤمنون من ربِّهم ﷻ، أنْ يتمّم لهم نورهم وأنْ يغفر لهم؟ فجاء تفصيل السَّبب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: إنَّك سُبحانك أنت القادر على كُلِّ شيء من المغفرة والعقاب، والرَّحمة والعذاب، وفي هذا الفصلِ إشعارٌ بِشِدَّة رسوخ هذا المعنى في نفوسهم، وثباتِ يقينهم بكمال قُدرة الله ﷻ.

تقرير كمال القُدرة إشعارٌ برسوخ مضمونه في عقيدة الدّاعين

فائدة صيغة المُبالغة في ﴿قَدِيرٌ﴾:

﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن (فَعِيلٌ) إحدى صيغ المبالغة المشهورة، وهو من أسمائه الحسنى وكلُّ أسمائه حسنى، أي: البالغ القدرة على كُل شيءٍ فيفعل بهم ما يشاء، ولا يمنعه أو يمتنع منه شيءٌ من مغفرة وعذاب، ورحمة وعقاب، واستجابة الدُّعاء وتحقيق الرَّجاء. وفي التَّعبير بصيغة المُبالغة أيضًا دلالة على كمال القُدرة وشمولها، وفيه تصريح وإقرار بقدرته المطلقة على كُلِّ شيء، مِمّا يجعل أملَهم في إجابة الدُّعاء بالمغفرة وزيادة النّور؛ وصل حَدَّ اليقين الَّذي لا شكَّ فيه ولاقلق معه[2].

التَّصريح والإقرار والتَّسليم بقُدرته تعالى المطلقة على كُلِّ شيء

نكتة تذييل الآية بصفة القدرة:

قولهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاء تذييلًا بليغًا يُؤكِّد ما

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 205، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 363، ولجنة من العلماء، التَّفسير الوسيط: 10/ 1490.

انطوت عليه قلوبهم من يقينٍ راسخ بقدرة ربِّهم على إجابة دعائهم، وإتمام نورهم، ومغفرة ذنوبهم، فالجملة جاءت مشحونة بجملة من المؤكِّدات محقِّقة للإيمان والرَّجاء، تعبّر عن فرحتهم العميقة بما هم فيه من كرامة، وحرصهم الشَّديد على دوامها. وفيها من الإثارة الوجدانيَّة ما يضاعف التَّعلُّق بالله ﷻ، إذ جاء التَّذييل مؤكّدًا، ومشيرًا إلى أنَّ ما يطلبونه ليس بعيدًا عن قدرة من لا يعجزه شيء، فكأنَّهم علّلوا دعاءهم بهذا الخبر، وفيه كناية رقيقة عن رجائهم الصّادق في نيل الإجابة[1].

الإشعار بتَعليلِ الدُّعاءِ السّابق كِنايةً عن رَجاءِ إجابتِه لهُم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتمام والإكمال:

الفرق بين الإتمام والإكمال فرق دقيق يُدركُ بالتَّأمُّل: فالإتمام صفةٌ تتوجَّه إلى الجواهر والأعيان ويُراد به إزالة النَّقص في أصل الشَّيء، كمن يبني بيتًا فيُتمّه بعد أن كان ناقص البُنيان. أمّا الإكمال، فهو صفة تتوجَّه إلى الأعراض وهو إزالة النَّقص العارض بعد تمام الأصل، ويتعلّق غالبًا بالصِّفات والمعاني، كمن يُجمّل البيت بعد إتمامه ويُكمله بزينة أو ترتيب[2]. وعليه فالكمال أبلغ؛ لأنَّه يأتي بعد تمام الأصل، ليزيد عليه كمالًا في الوصف أو الهيئة، ولذا يُقال: الإتمام للأصل، والإكمال، يرد على التّامِّ فيزيده كمالًا، في حين أنّ التَّمام يرد على النّاقص فيرفعه إلى حدِّ الكفاية. ومن هنا فالإتمام أنسب لمقام التَّأدُّب في الخطاب، والطَّلب والدُّعاء من الله ﷻ بإتمام النّور.

الكمال أخصُّ بالصِّفات والمعاني، والإتمام بالأعيان والمباني

وكذلك على العبد تعلَّم الدُّعاء كي لا يحصل تعدّي فيه، وأعظمُ تكريمٍ للعبد حين يكون في رعاية الله ﷻ .

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 14، وابن القيم، اجتماع الجيوش الإسلامية: 2/ 34.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"